على الغواية فهناك طريقة واحدة فقط عانقْها، تذوَّقْها، وتعلّمْ كيف تحتقرها عندها تعجز عن إغوائك مرّة أخرىٰ. كلّ من يقتلع غرائزه يقتلع قوّته. ومع الزّمن والشّبع والمبدأ يمكن أنْ تتحوّل هذه المادّة المظلمة إلى روح

وعاد كازانتزاكي إلى كريت وهو يردّد: كان الأبّ جواكيم على حق. العالم هو ديرنا. الرّاهب الحقيقي هو ذاك الّذي يعيش مع البشر ويعمل هنا مع الله ملتصقاً بالتّراب. فالله ليس جالساً على عرش فوق الغيوم. إنّه يصارع هنا علىٰ الأرض إلى جانبنا. لمْ تَعُدِ العزلةُ طريقَ الإنسان المكافح.

كنت أدفعه لقراءة ذلك الجزء من حياة كازانتزاكي، ليخرج من قوقعته. ففاجأني بنتيجة عكسيّة. قال انظرْ ماذا يقول صاحبك، وأشار إلىٰ جملة وضع تحتها خطّاً أحمر: «**العزلة ضروريّة لأيّة روح تفشل في أنْ تحترق بعاطفة عظيمة**».

قرأتها بصوتٍ عالٍ، نظر نحوي بشماتة ثمّ تفوّه بهدوء:

ـ إنّ روحي غير قابلةٍ للاحتراق بأيّة عاطفة. لذا اخترت الطّريق إلى الله، عبر عزلتي وكتبي. ومثل عصفور منفرد سأبقىٰ حتّى أحظى بوحدة الخالق.

ـ وما أدراك أنّها الطّريق الصّحيحة؟

ـ أشعر أنّها طريقي، وصحّتها لا تهمّني.

***

لعلّه مات؟ لكن هل هو حيّ حقّاً؟

لعلّه مات.. هاجسٌ يلحّ عليّ.. في الصّباح أمرّ لزيارته. لقد تجاوزت السّاعةُ الثّانيةَ ليلاً. الثّلج والضّباب في الشّوارع يمنعاني من المبادرة الآن.

* * *

استيقظتُ وصورتُه داخل عيني.. حزمتُ جسدي بالثّياب الصّوفيّة كمدفأة. فتحتُ الباب، ورسمتُ خطوةً أولىٰ وسط الثّلج في الطّريق إلىٰ الصومعة. لايزال الضّباب يتكاثف إلىٰ المزيد.

سيفاجأ بطرقاتي. هذا الزّائر الصّباحي الّذي هو أنا، كَمْ سيزعجه!

ولكن لعلّه مات؟

أخطأتُ الاتّجاه.. اختصرتُ الطّريق.. عاندتُ العاصفة.. تابعتُ بصعوبة وأنا أهجسُ بالخوف من أنْ أتجمّد وأستحيل إلى قطعة من جليد.

ميّزتُ وأنا على بعد مترٍ واحد أنّ الباب مفتوح، وكذا كلّ النوافذ والضّباب في الدّاخل كالخارج تماماً!

ما الّذي أيقظه في هذا الصّباح الباكر الجليدي؟ لماذا يفتح كلّ المنافذ للبرد والضّباب!؟

لعلّه أحسّ بالموت قبل أن تقتربَ نهايته، ففتح الباب ليتيسّر لنا الوصول إلى جثّته دون تعب؟

لعلّه الآن يرقد ميّتاً، ملتصقاً بعزلته وإلٰهه؟

قبل أن أصطدم به، يفاجئني صوت شبحه القريب:

ـ ادخلْ.. ادخلْ، كنتُ أُدرك أنّك ستأتي، إنّ زياراتك...

قاطعتُهُ، لم أستطعْ منَع نفسي من الصّراخ به:

ـ مجنون.. أبله.. لماذا تحكم على نفسك بالموت بهذه البشاعة؟

كان يقف وسط الصّالون، رافعاً يديه كصليب، ويرتجف برداً. وكان يتمتم: «ما أضيق الباب وأكرب الطّريق الّذي يؤدّي إلى الحياة، وقليلون هم الّذين يجدونه» (متّى ١: ١٤).

هُرعتُ إلى الأبوابِ والنّوافذ، أغلقتُها جميعاً. حاول منعي لكنّه لم يستطع. سحبتُهُ إلى جانب المدفأة عنوةً. أشعلتُها. ثمّ أعددتُ ابريقاً من الشّاي. وما إنْ عدتُ إليه حتّى طلب منّي المغادرة قائلاً:

ـ لقد دنّسْتَ صومعتي، وخرّبت عزلتي.. اخرجْ من هنا.

لكنّني لمْ أخرج، بل رشفتُ الشّاي بهدوء، وجلست بجواره.. أشدُّ بكفّي على زنده. نظر نحوي بعبوس، نظرتُ نحوه بابتسام، ومالبثنا أنْ انفجرنا معاً بالضّحك الصّاخب، دون أنْ يدري أحدنا السّببَ!

حمص (سوريا)

كمال الكتمان

منتصر القفاش

قادرٌ على أن أنقل لكم الأغنية الّتي يردّدها، أن أكشف الكلمات الخطأ الّتي ليست في الأصل، أن أحدّد لكم كم مرّة ردّدها ومتى وأين.

ولا أستطيع أن أعرّفكم لماذا لا يغنّيها ـ ولا يطلقها ـ حينما يكون الوقت وقتها، حينما لا يكون هناك رفيق سواها.

*

تملّى صورته القديمة. واضحة عليها آثار الكلمات، الّتي كُتبت متّخذة الصّورة أرضيّة لها لم يتبيّن سوى كلمة: غداً.

*

كعادته حينما يوقظه التليفون، يشعر ـ برهة ـ برنينه يأتيه من حلم طويل.

كل ما قاله في صوت خفيض: «أيوه».

وظلّت تكرّر وتحدّد أنّها لن تراه أسبوعاً، شهراً، «مش عارفة» ولن تكون في البيت، في أي مكان يعرفه، وأنّها «عملت اللّي عليها»

ولم تفعل هذا إلاّ بعد: «ما قلت لك».

انقطع الخطّ فجأة ثمّ عاد الرّنين.

أيوه.

لم تجب، وأصغى إلى تنفّسها اللاّهث العميق.

*

ضعفت بطّاريّات المسجّل،

وأصبح الصّوت يأتي مضخّماً، تكاد نهاياته تشبه التّثاؤب العميق.

لم يوقفه، وظلّ ينصتُ إلى كلمات الأغنية.

*

يريد التخفّف من ثقلٍ.

صار لا يحمل حقيبته الجلديّة وهو ذاهب إلى المدرسة. اكتفى بالابتسامة إجابة على سؤالهم عن الشّنطة. لم يكن في حاجة إليها.

القلم الجافّ يستطيع وضعه في جيب القميص، محفظته الجلديّة في جيب البنطلون الخلفي، كيس النظّارة لا يستعمله، الكلينكس: يكفيه منديلان يضعهما في أيّ جيب، كشاكيل تحضير الدّروس يتركها على مكتبه في غرفة المدرّسين.

صار لا يحمل حقيبته، وصار يشعر بالسّعادة كلّما فكّر في معاودة حملها.

*

هل كانت تقاطعه وهو يتكلّم؟

حاول أن يصف تلك اللّحظة.

حينما يندفع الطلاّب من الفصول مع دَقّة الجرس في نهاية اليوم، ويتسابقون في الوصول إلى السلّم الحجري، الّذي بُريت درجات منه،

وتبدأ دبدبة أقدامهم وهم ينزلون وصراخهم،

تمور في داخله لحظتَها، أصواتٌ من كلّ الجهات، تتجاذبه، منادية كلّها اسمه، ومحاولاً كلّ منها أن يخرس ما عداه.

أصوات قد ترافقه طول اليوم، وقد يتذكّرها حينما يستيقظ.

*

في اجتماعه مع المدرّسين، شرح المدير الخطأ الّذي حدث «جت لنا جوابات من الوزارة، تشرح نظام اليوم الكامل، قمنا نفّذناها على طول، وما خدناش بالنا أن قصدهم يأخذوا رأينا، يعرفوا إن كان ده ينفع ولاّ لأ، عموماً حنفضل نشتغل بالنّظام الجديد لغاية ما يسألونا عن رأينا. واضح»؟

*

إيه الحكاية؟

سألها وهو يجاهد ألاّ يبعد عينه عن عينيها، وهو يفكّر لمن السّؤال: لها أم له؟

دوماً في كلامها تكثر التّشبيهات، تقولها متتابعة سريعة بلا فواصل، وقد تقطع حديثها لتذكر تشبيهاً ودّت لو قالته في مرّة سابقة.

إيه الحكاية؟

ردّدتْها مرّات قبل أن تروح في «الحكاية زي... شَبَه... كأنّها»... محدّقة في عينيه أو هكذا تخيّل، وجرؤ على أن يسأل نفسه أوّل مرّة:

ما المشبّه؟ وما المشبّه به؟

*

كتب على السّبورة وذرات الطّباشير تتطاير أمامه، من نص «كن جميلاً» لإيليا أبو ماضي:

س ١: «وما بك داء» ـ ما قيمة هذه الجملة في المعنى؟

س ٢: عيّن في النّصّ بيتاً يكون مفتاح القصيدة.

س ٣: وضّح جمالاً في «أدركت كنهها طيور الرّوابي».

*

ماذا يفعل؟

قرّر أن يردّد بصوت عال ما يجب فعله غداً، وكأنّه سيحدث أوّل مرّة، كأنّه سيفاجأ به. الذّهاب إلى المدرسة، دخول فصل ٢/٣ في الحصّة الثّانية، الخروج منه بعد ٤٥ دقيقة، الجلوس في غرفة المدرّسين، وكتابة درس الحصّة الرّابعة في كشكول التّحضير، وتبادل كلام مع زملاءٍ...

أطلّ من شبّاك الغرفة

لم يذكر عودته إلى البيت، وجرس تليفونه وسماعه لصوت تنفّسها فقط، ولقاءه مع صديقه وسؤالهما عن ضرورة السّفر وعن وسيلة لجلب عقد عمل.

وتذكّر أنّه كان يريد الشّعور بالغد، كأنّه سيحدث أوّل مرّة، كأنّه سيفاجأ به، ولكنّه نسي.

*

أراد أن يقول لها: ـ

لا تهتمّي بالخطأ في غنائي، وسارعي إلى غناء «الأصل» كما تهوينه، لا تروحي في غنائك منفردة، وتعدّدي الأغنيات الّتي صادفتك وأنت تديرين مؤشّر الرّاديو.

لا أبغي دور «ملقّن الرّغبات».

ربّما كلّ ما أبغيه أن نرعى قليلاً هذا الخطأ، فقد يكون إرثنا الحقيقي.

أراد أن يقول لها هذا، وإذا به يؤجّله إلى يوم آخر ويكتفي بمشاركتها في غنائها ويفكّر في «متى».

*

ـ عامل إيه يا أستاذ؟

التفتَ، لم يجد أحداً.

الشّارع بضوء العمود المتخفّي وراء أغصان شجرة، واجهه.

والصّوت كأنّه مازال

*

شكره الرّجل لسماحه له بالجلوس بجوار الشّبّاك.

عرّفه باسمه، وهو يمدّ ذراعه إلى الخارج، وحكى عن حبّه القديم لأن يطلّ من شبّاك الميكروباص وهو ينطلق، وعن كراهيّته كلّ الإشارات، وعن عدم توفّر هذه الفرصة له دائماً، فقد يكون هناك راكب يضمر هذا الحبّ. «باين عليك والله زينا».

هزّ رأسه موافقاً، وضحكا

*

باقة وردٍ، كيف يوجدها لها؟

فكّر في أن يجمع أشياءها الدّقيقة، الّتي أخفتها بفرح في الأماكن الّتي جلس فيها، أن يهديها **الحبّ في زمن الكوليرا**، أن يلتقط صوراً لشارع فيصل الّذي طالما سارا فيه، أن يسهب في وصف نظرتها الجانبيّة المتسائلة.

أية باقة يوجدها؟ يشتهيها؟

خلص إلى أن يذهب بمفرده إلى الحرافيش، مكانهما الأوّل، ويستغرق في وجودها الحقيقي إلى جانبه.

*

نظر إليه الفرّاش في دهشة. لم يكن أحد قد حضر، لا الطلاّب ولا المدرّسون. لم تكن عادته أن يأتي مبكراً ويصعد إلى الغرفة الّتي تضمّ المكاتب، ويصلح سلك السّخّان الكهربائي ويضع فوقه البرّاد، وينظر من سور الدّور الثّاني على الحوش المنتصب في وسطه سارية العلم، ثمّ يلتفت إلى فصل، ويتّجه نحوه، ويسير بين المقاعد الخشبيّة ويمرّر أصابعه على أسمائهم المحفورة ورسومهم، ويتذكّر ما تمنّى دائماً أن يشرحه لهم، أن يحكيه، ويقترب من السّبورة ويمسح تاريخ الأمس.

ويخرج عائداً إلى البيت، مضمراً أن يغيب اليوم.

*

وماذا لو قرأتَ خطابك غير المكتمل؟

يهمّ كثيراً أن يُنهيه، فلا يخط خطاً، ويمنّي نفسه بلقاء في نهايته ويعطيها الخطاب غير المكتمل ـ قائلاً:

ـ حضوركِ سيكمل ما نقص

وماذا أيضاً؟

ـ ما نقص لا يريد سوى كمالكِ

وماذا؟...

ـ كمالكِ في طيّ الكتمان

وماذا...

ـ كتماني يعرف أكثر مما قلتُ

و......؟

وماذا قلتَ في لقاءٍ عند خطاب غير مكتمل؟

*

يفتح النّافذة محاولاً الإفلات مما داهمه في عتمة الغرفة.

لم يطمئن إلى تلك الشّرفة المواجهة له بشيشها المغلق والّتي لا تنسحب عنها أبداً كثافة الأتربة. تذكّر فيروز «تعا ولا تجي من درب الأعمار».

وهو يتذكّر ما نَسِيَه

القاهرة

وعاء الضّغط

فيصل عبد الحسن

لم تكن مهمّة صعبة، إنّها مجرّد قدر ضخمة للضّغط، مغلقة ولا يخترقها الصّوت. كانوا يقضون نهار الجمعة في التّجوال في الأسابيع الماضية، والحديث عن أمور حياتهما المشتركة تستغرقهما، وابنهما الصّغير مثل قرد ينطّ أمامهما في دروب الحديقة ببنطاله السّميك الأزرق والحذاء الصّغير في قدميه يصدر صفيراً خاصّاً كلّما أسرعت خطواته. كانت امرأة ضئيلة وقد بان الاصفرار على وجهها وبدت يدا الرّجل ملوّثتين ببقايا أصباغ وجروح قديمة مندملة، وحزوز كثيرة في جلد راحتي كفّيه. وأخذت المرأة توافقه على كلّ ما يقوله دون نقاش. لكنّه كان يتضايق من هذا القبول غير المشروط ويتمنّى لو أنّها ناقشته في ما يعتقده، للوصول إلى حلول ممكنة.

أخذت المرأة تسرح ببصرها بعيداً. كان شعرها جميلاً، مرسلاً على ظهرها، ليغطي الورود الحمراء، المطبوعة على قميصها. وبين الحين والحين تنظر إليه بعينيها الواسعتين، فيشعر الرّجل بمسحة الحزن التي تغطّي قسمات وجهها. وتذكّر أوّل لقاء لهما قبل أن يتزوّجا، فقد بهرته بعينيها الوامضتين، ولم يرَ شيئاً غير العينين في تلك الأيّام. فكّر الرّجل أنّ عليهما أن يجتازا الحديقة ليصلا إلى بغيتهما. وثمّة ورقة مدعوكة ينظر إلى العنوان المسجّل عليها بقلم رصاص بين الحين والحين. قال الزّوج وهو يومئ للصّغير للإبطاء في السّير: ـ «إنّهم بحاجة إلى امرأة ورجل وطفل».

لم تقل المرأة شيئاً. كانت تتبع رجُلها صامتة. وقف الصّغير على أرض الممرّ ينتظرهما، وحالما وصلا إليه مد يده باتجاه أبيه. أمسك الأب الكفّ الصّغيرة وسارا معاً يسبقان المرأة. أعادت المرأة خصلة شعر سرحت على عينها اليسرى. عبرا الشّارع، كانت الأم في هذه المرّة هي الّتي تمسك كفّ الصّغير. همس الزّوج: «إنّه مصدر رزق جديد، لنتمكّن من تسديد الأقساط المتأخّرة من بدل إيجار البيت، ونشتري ما نحتاجه من الملابس للصّغير».